أحمد مروات

قصة اكتشاف أول مصورة فوتغرافية في فلسطين

Photography3.indd 20-21 7/26/11 12:55 PM

قصة اكتشاف أول مصورة فوتغرافية في فلسطين

بداية القصة «واكتشاف المجموعة»

في صيف عام ٢٠٠٦، أعلن جامِع مقتنياتٍ قديمة - وهو إسرائيلي الجنسية - في جرائد عربية محلية يسأل عن مجموعة صور تحمل توقيعاً مذيلاً باسم المصورة كريمة عبّود. ومن المرجح أن يكون الجامع المذكور قد حصل على الصور بطريقة غير معروفة حتى الآن، أو أنه قام بشرائها من تاجر للمقتنيات القديمة. حيث فوجئت من خلال مطالعتي لهذا الإعلان المنشور من قبل هذا الشخص، الذي يطلب المساعدة في العثور على تاريخ وجذورهذه المصورة الفلسطينية، خاصة وأنه يهودي من مدينة القدس!

وكان نص الإعلان: «أن من لدية أي معلومات عن مصورة فوتغرافية كانت تعمل في الناصرة وعن عائلتها فليخابرني عنها على الرقم المذيل بالإعلان...»

فما كان مني إلا أن تابعت الموضوع بشغف كبير وقد سارعت في الاتصال به على الفور معلنا أنني مهتم بهذه المواضيع وبهذا التراث بشكل عام، وأنه كما يبدو لي، أن لدي بعض من أعمال هذه المصورة الجديدة الاسم على مسامعي والتي اكتشفت اسمها الجديد بصورة مفاجئة عن طريق هذا الإعلان.

تم التواصل بيننا في مدينة الناصرة وقد جاء من القدس حاملاً في جعبته أربعة البومات من الحجم المتوسط وهي لأعمال المصورة الفلسطينية كريمة عبّود وهي فعلا نادرة وما يميزها أنها مذيلة بخاتمها واسمها بالعربية والإنكليزية «كريمة عبّود - مصورة شمس».

كانت المقابلة عبارة عن استفسارات وجهها هذا الشخص لي حيث بدا غامضا في مقابلته إلى أبعد الحدود ولم يسع إلى التحدث بشكل عفوي حول هذه المجموعة وعن سبب وقوعها في حوزته وفي أي منطقة من بلادنا. إلا أنه ومن خلال المحادثات التي تمت بيننا كانت النتيجة أن هذا الشخص هو من محبي اقتناء الصور والأدوات التاريخية وهو يجمعها منذ سنوات طويلة وله من الصور التاريخية لمصورين فلسطينيين ومستشرقين البومات كاملة في بيته بالقدس الغربية. لذلك كان بحاجة إلى البحث عن هذه المصورة التي تدعى كريمة عبّود خاصة أنها عنصر نسائي وأن مجموعتها تميزت بطابع مغاير

عن هؤلاء المصورين الذي عاشوا في نفس الحقبة الزمنية التي عاشتها والذين كانوا يولون الأرض والآثار والمقدسات كل الاهتمام، بينما كانت عدسة كريمة تسلط الضوء على النساء والأطفال والبشر بدءاً من العائلة والمجتمع في محاولة لتوثيق ما أُهمل من قبل هؤلاء المستشرقين الأوروبيين، وخاصة التصوير الصهيوني الذي كان منتشرا في فلسطين والذي أهمل تماماً المشهد الاجتماعي العربي بفلسطين.

ومن باب الفضول قمت بطرح سؤال عليه من أين لك هذه الصور؟ فلم تكن هناك أية إجابة!

وكان له بالمقابل عدة أسئلة أيضا عن هذه السيدة: أين مولدها؟ ومن تكون؟ وأين بقايا عائلتها وصورها المتبقية؟ وقد تبين لي أن هذا الشخص لم تقع بيديه سوى الأعمال والصور الخارجية لعبّود وهي الصور التي كانت تلتقطها لمناظر عديدة من المدن والقرى الفلسطينية أثناء تجوالها أيام الأحد وهو اليوم الذي كانت تغلق به الأستوديو وتقوم بجولاتها مع صديقاتها وبنات عمومتها من الناصرة أمثال «متيل»[1] و«شفيقة»[2] بنات دعيبس.

وقد قمت بتصفح الألبوم بشكل دقيق لمشاهدة الصور التي تبين أنها لخمس مدن فلسطينية رئيسية وهي: مدينة بيت لحم ومعالمها كقبة راحيل مثلاً، ومدينة طبريا وشواطئها وأسواقها وكنائسها وجوامعها، ومدينة الناصرة، ومدينة حيفا التي استحوذت على العديد من الصور الجميلة كجبال الكرمل والساحل والبلدة القديمة والميناء وسكة الحديد وغيرها.

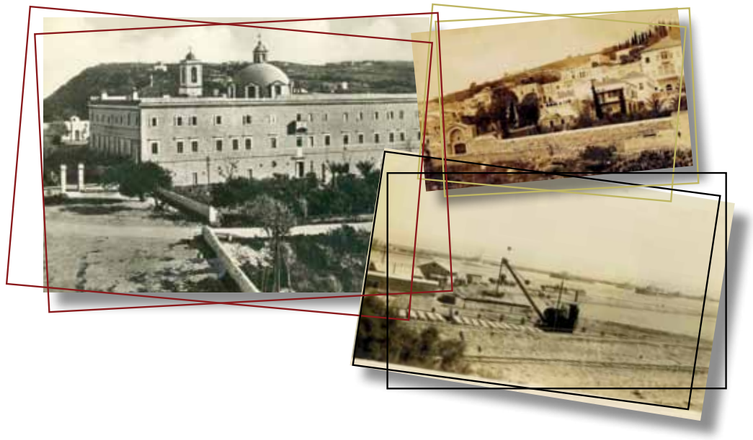

وقد تبين لي أثناء لقائي به أن بعض الناس ممن توجهوا إليه سابقاً كانوا قد أشاروا له أن عائلة عبّود هي عائلة سكنت الناصرة أو أن هناك تشابه في الأسماء.

وبعد هذا اللقاء والمشهد المستفز باشرت بالبحث عن كل شيء له علاقة بهذه المصورة وعن آثارها وكل ما يتعلق بها، علني أجد شيئا ما زال مفقودا من تراث هذه المصورة المثيرة للجدل والتي كان لها الكثير من الأعمال الفوتوغرافية المنتشرة في العديد من المدن والقرى الفلسطينية قد وصلت الى أيدي هذا الشخص، عن طريق البيع بوساطة طرف عربي، الأمر

Photography3.indd 22-23 7/26/11 12:55 PM

الذي كان سائداً في الفترات الأخيرة وخاصة في أسواق كثيرة مثل يافا وحيفا والقدس. وعلى أية حال فان ما يمتلكه هذا الشخص يمثل المجموعة الثانية من أعمال كريمة عبّود وهي بلا شك هامة والحصول على هذه المجموعة أمر بات شبه مستحيل حتى الآن!

تتوالى الأحداث بشكل سريع ويتحول هذا البحث إلى تحدٍ ثم إلى عنوان هام حيث كانت الصدفة أن عثرت على طرف خيط أوصلني إلى مجموعتها الثمينة الذي سيتيح المجال لأبناء فلسطين والعالم العربي من التعرف عليها.

عائلة عبّود في الناصرة ومجموعة كريمة عبّود الجديدة!

إمرأة من بيت لحم

كانت مفاجأة ثانية بالنسبة لي. فقد حصلت على البومات من عائلة عبّود في الناصرة والتي من خلالها كانت تبرز أعمال كريمة عبّود بشكل متكرر ومذيله بنفس الخاتم الذي شاهدته بمجموعة ذلك الشخص اليهودي الذي حصل على مجموعتها وهي بالعربية وأخرى بالانجليزية. وهذه المجموعة التي حصلت عليها كانت من نوع آخر. حيث كانت المجموعة توثق أعمالا لنساء وأطفال فلسطينيين وصور كثيرة داخل وخارج الأستوديو كان أولها عام ١٩١٣ لامرأة من مدينة بيت لحم ترتدي الزي الإفرنجي وتمسك بيدها المظلة وتلبس على رأسها قبعة كبيرة وعلى جانب الصورة منظر خشبي ورسم زيتي مزخرف بالورد في خلفية الديكور وهو النظام والديكور المتبع للمصورين في تلك الفترة.

تم الاتصال مع الكثير من أبناء عائلة عبّود في الناصرة وغيرها للمباشرة في توثيق الرواية التاريخية لكريمة. والمبادرة بكتابة مقالة بشكل أولي حول هذه المجموعة الجديدة المكتشفة. وعن التصوير الفوتوغرافي خصوصاً أن المحترف هو عنصر نسائي تم اكتشافه حديثاً وسيكون مفاجئة لكل الباحثين ومحبي التراث الفلسطيني بصورة عامة والتصوير الفوتوغرافي بشكل خاص.

ورداً على طلبي المتكرر والملح استجابت العائلة بالناصرة - وعلى رأسها السيد دعيبس عبّود والد الموسيقار وعازف البيانو المشهور سليم عبّود وزوجته مها عبّود - لطلب استضافتي في بيتهم وتقديم كل ما يتطلب من معلومات ومجموعات من الصور الخاصة للمربية المرحومة متيل عبّود ابنة عم وشقيقة كريمة في الناصرة.

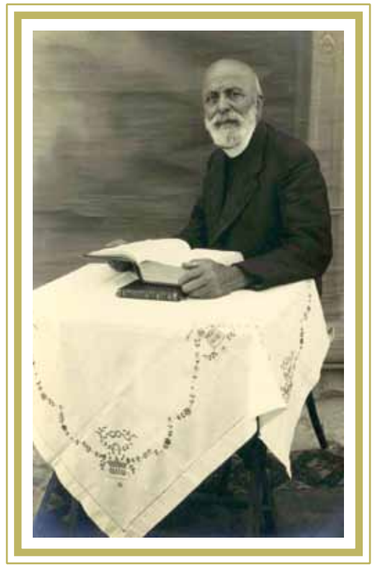

القس سعيد عبّود

إلى أية رواية من والده ووالدته عن ذلك. لكنه سمع أن له أقرباء من قبل الجد في مدينة بيت لحم وأن الاحتمال الأقوى أن تكون ابنة القس سعيد عبّود. وهذا ما أكده ايضا القس رفيق فرح - وهو رجل دين معاصر خدم كقس وكواعظ في

متيل عبّود

والتي كانت عبارة عن مجموعة صور عائلية تخص المربية متيل ومن بينها كان هنالك مجموعة كبيرة من أعمال كريمة عبّود. بل أن الصور الخاصة بمتيل نفسها كانت من تصوير كريمة ومذيلة بخاتمها «كريمة عبّود - مصورة شمس».

وحول هذه المصورة التي تنتمي إلى عائلتهم. نفى السيد دعيبس أن تكون كريمه قد ولدت في مدينة الناصرة وأنه على الأقل لم يستمع

Photography3.indd 24-25 7/26/11 12:56 PM

الكنيسة الأسقفية في فلسطين في منتصف الأربعينيات- من خلال اتصال هاتفي أجراه معي ومن خلال المراسلات المتكررة التي تمت بيني وبينه بهذا الخصوص. كما وأكد لي أن سعيد عبّود خدم في رعية بيت لحم في الكنيسة اللوثرية.

أما بالنسبة لسيرة حياة المصورة الفلسطينية الوحيدة التي احترفت هذه المهنة في زمن مبكر. فقد واجهتني مشكلتين أثناء عمل بحثي الميداني المتكرر داخل المؤسسات المسيحية:

كنيسة المسيح الأسقفية - الناصرة

الأولى: في تحديد الطائفة التي تنتمي إليها والثانية: في الحقبة التي عاشتها أو توفيت فيها. بهدف تحديث سيرتها الذاتية وترتيب الفترات الزمنية التي عملت بها في هذا الفن.

لهذا قمت بالبحث في كافة سجلات المعمودية التي كانت في كنيسة المسيح الأسقفية «البروتستانت «في الناصرة وهي الطائفة التي ينتمي لها فرع العائلة الذي يسكن الناصرة. ولكن للأسف لم يكن لها أي أثر من خلال السجلات بالقيود القديمة لدى سجلات المحكمة الكنسية او دفاتر العماد. إلا أن هنالك أسماء كثيرة وردت بالسجلات كمتيل وهيلانة وشفيقة ودعيبس وسليم وسلمى وهم أبناء عمومتها في الناصرة لكن لم يكن لها أو لوالديها أو شقيقاتها أي تسجيل أو أي ذكر. الأمر الذي جعل من البحث أكثر تعقيداً وأكثر صعوبة وراودتني شكوك أن هذه المصورة لايمكن أن تكون قد عاشت في تلك البلاد ولربما كانت لبنانية وأقامت كضيفة في فلسطين ورجعت إلى موطنها مثل باقي المصورين من عرب ومستشرقين قاموا بتصوير فلسطين على مدى سنين طويلة. وتتبعاً لسيرتها قمت بإرسال عدة رسائل واتصالات مع إدارة الكاتدرائية ومطرانية القدس للإنجيليين علني أجد شيئا في أرشيفهم في القدس. ولكن دون جدوى.

في بداية عام ٢٠٠٨ بدأت بكتابة سلسلة من المقالات حول التصوير الفوتوغرافي النسائي وعن ظهور أول مصورة فوتوغراف فلسطينية لتعريف الباحثين ومحبي التراث بهذا الاكتشاف الهام وأخص بالذكر مشاركتي في مؤتمر أقيم في جامعة بير زيت

بدعوة من مؤسسة الدراسات المقدسية في رام الله حول الأوراق والمذكرات العائلية بفلسطين. حيث كان لي الحظ أن أشارك بورقة مع كبار المؤرخين والباحثين وعلى رأسهم أ. د سليم تماري و الدكتور عصام نصار ومن خلالها تم نشر مقالة بالانجليزية عن المصورة الفلسطينية كريمة عبّود وعن مجموعتها المكتشفة حديثا ونشرت في مجلة حوليات القدس بالطبعة الإنجليزية ومن ثم صدرت في دراسة نشرتها مؤسسة الدراسات المقدسية وهي حصيلة أعمال مؤتمر «المصادر الأرشيفية والتاريخ الاجتماعي بفلسطين «الذي عقد في جامعة بير زيت تموز ٢٠٠٨.

ولأهمية الموضوع نُشرت المقالة في العديد من المواقع على الشبكة العنكبوتية وتناقلتها الكثير من الصحف حتى دخلت هذه المعلومات إلى الموسوعة الحرة باللغتين العربية والإنجليزية. وقد أضيف إلى هذه المعلومات. أن من قام باكتشاف هذه المعلومات باحث من الناصرة بعد أن انتزعها من ذلك التاجرالإسرائيلي الذي سبق ذكره. وأن قسماً منها موجود لدى الباحث «مروات» في الناصرة. والقسم الآخر لدى التاجر الإسرائيلي!

عيادة طبية - الخليل

قدمت دعوة قضائية ضدي إلى وحدة الغش والخداع! وبعد امتثالي أمام مكتب التحقيق في مدينة طبريا سألني المحقق عن هذه المجموعة ومن أين حصلت عليها؟ وأسئلة كثيرة أخرى حول أعمالي ونشاطاتي. وفي نهاية التحقيق طلبت من المحققين تفسيراً عن سبب إجراء هذا التحقيق معي. ومن هو المشتكي الفعلي؟ فقالوا لي أن الشخص الذي قابلك في الناصرة حول مسألة المصورة كريمة عبّود يدعي أنك قمت بتزوير صورها والخاتم المذيل خلف الكرتون للصور وأن الصور من مجموعاتة الخاصة!

وعلى أية حال كان جوابي أن هذا الشخص لا يحق له أن يمتلك إرث كريمة عبّود. وأنه لا توجد أية علاقة قربى أو صداقة تربط بينه وبين هذه السيدة ناهيك عن أنها سيدة مسيحية عربية وهو يهودي! لذلك فإن ما وقع بيده من صور خاصة لها لم يكن إلا بمحض الصدفة أو من باب التجارة بين جامعي المقتنيات. أو أنة انقض على إرثها أثناء احتلال لفلسطين. وعلى أثر هذا انتهى التحقيق معي. وتابعت إخفاء هذه المجموعات إلى أن جاءت الفرصة التي كنت أتمناها بأن تخرج هذه المجموعات إلى النور في دراسة توثق تاريخ التصوير الفوتوغرافي النسائي في فلسطين وهذه المرة على يدي امرأة اختارت أن تدخل هذا المعترك الصعب وأن تترك بصماتها على الكثير من النيغاتيف والصور الصامتة التي بحوزتنا...

Photography3.indd 26-27 7/26/11 12:56 PM

لاشك أن لكريمه دور كبير في تلك المهنة التي كان لها كبير الأثر في المجتمع العربي الشرقي! خاصة أن الكثير من العائلات المحافظة لم تكن تقبل بأن تظهر فتياتها أمام عدسات هذه الاختراع العجيب الذي كان يعتبر غريباً في ذلك العهد. باستثناء بعض العائلات المنفتحة التي كانت تأخذ لقطات جماعية وهو ما تثبته الصور القديمة لبعض عائلات القدس ويافا وحيفا وحتى غزة هاشم في أيام الانتداب البريطاني.

لقد بدأت كريمة عبّود بالتقاط بعض الصور لأبناء عائلتها والمقربين لها حتى احترفت المهنة في أوائل العشرينات من القرن الماضي وقد عرفت في ذلك العهد بالمصورة النسائية.

ومن خلال عملها في حرفة التصوير استطاعت التقاط الكثير من الصور التي تخص النساء وفي الكثير من المناسبات. لكن الفرق بينها وبين المستشرقين أنها بادرت لتصوير المرأة المنتجة التي نهضت للحياة كمربية وطالبة وأم وحاضنة وربة منزل. ولم يكن التركيزعليها وعلى الدواب التي تجر المياه من عيون الاستسقاء كما توثقه عدسة أولئك الذين ترسخت في أذهانهم مفاهيم خاطئة مفادها أن المرأة مجرد خادمة في بيتها. وزوجة مطيعة لأوامر زوجها. وخادمة في أرضها ومرضعة لأطفالها! ولابد من الإشارة إلى أن دخول الانتداب البريطاني لفلسطين أحدث نوعًا من التطور بما يخص دور المرأة وإمكانية تصويرها.

القس أسعد منصور مدرسة الاحد عام ١٩٢٣

إن الرعيل الأول ممن عايشوا هذا الاختراع منذ لحظة تسلله إلى فلسطين وحتى نشأته كان يعتقد أن التصوير الفوتوغرافي هو بدعة من

طفل فلسطيني مع جهاز الهاتف

عمل الشيطان ولا يستوجب على المسلم بالأخص أن يمتثل أمام هذا الاختراع الغربي ليغضب وجه الله. لذلك فالخزانة الفلسطينية تفتقر إلى الكثير من الصور الفوتوغرافية لبعض الأعلام والشخصيات التي عايشت تلك الفترة وكان لها دور ريادي في المجتمع الفلسطيني على صعيد السياسة والأدب والثقافة. فبكل عزم وثبات وتحدٍ جاءت الآنسة كريمة عبّود لتملأ هذا الفراغ الكبير الذي حال دون ظهور المرأة بصورتها الطبيعية. ومع تقدم الوقت وتوالي الحقب الزمنية أصبحت الصور الفوتوغرافية حاجة ماسة لكل بيت ولكل فتاة وخاصة من قبل الدوائر الرسمية كالمدارس الأهلية والكليات والجامعات أو لاستخدامها في جواز السفر حيث كان يُحذر أن تلصق صورة المرأة على صفحاته. وكان موظف دائرة النفوس «الداخلية «يكتفي بأن يشير إلى اسمها واسم زوجها وعدد أولادها فقط!

وبحضور رب الأسرة أصبح للتصوير لون وطابع جديد إذ كانت لهذه اللحظات مراسيم شعبية وتحضيرات مشوقة. فتستقبل العائلة المصور/المصورة باللباس الجميل الزاهي وتكون الموبيليات ذات منظر راقٍ لترسم أيضا على جوانب الصورة. ويلاحظ في أكثر الصور أن الورود كانت ترافق دائما أصحاب البيت أو العائلة في صورهم.ولعل الكثير من الاختراعات كانت قد ظهرت بشكل ماثل في الصور كجهاز التلفون حديث الاختراع والفونغراف الموسيقي أو بعض المزهريات التي تضفي نوعا من الجمال والديكور كنوع من التباهي والتفاخر. والغريب في ذلك كله أن السجادة كانت دائما ملقاة تحت الأقدام.

Photography3.indd 28-29 7/26/11 12:56 PM

في الوقت الذي كانت فيه القدس عاصمة التصوير الفوتوغرافي آنذاك ظهر في كل مدينة فلسطينية مصورين محليين كيافا وحيفا والناصرة وبيت لحم ليصبح هذا الاختراع وثيقة هامة للتعرف من خلالها على الأفراد والجماعات ولتبقى شاهداً على الذكريات الجميلة التي عايشوها. ولكي تذكر بأصحابها الذين طواهم الموت لتبقى صورهم صامدة أما جبروت التاريخ وعوامل الزمن!

نهاية مصورة وبداية لدراسة توثيقية لتاريخ التصوير الفوتغرافي في فلسطين

كانت تتبع تاريخ كريمة عبّود يتمثل في تتبع آثارها القليلة التي وجدت بفضل الأديرة والكنيسة التي قامت بالاحتفاظ بها على مدى عقود طويلة متحدية عوامل الزمن. حيث كان لي زيارة لكنيسة الميلاد الإنجيلية اللوثرية بمدينة بيت لحم حيث قمنا بتنسيق هذة الزيارة مسبقا مع القس الدكتور متري الراهب راعي الكنيسة ورئيس مجموعة ديار بهدف البحث عن مآثر هذه المصورة التي كادت بصماتها تتلاشى عن هذه الحرفة برغم عدد الصور التي تركتها بعد رحيلها.

كنت برفقة السيدين دعيبس وزوجتة مها عبّود وقد اجتمعنا بتاريخ ٢٠٠٩/٤/٢٥ في مكتب الدكتور القس متري راهب وقد تكرم علينا بسجلات الكنيسة وكانت المفاجئة أن تبين لنا أن المرحومة كريمة عبّود ولدت في عام ١٨٩٣ في بيت لحم. وأنها كانت متزوجة من شخص من الجنوب اللبناني يدعى «فارس طايع» ويعمل تاجراً وكان الزواج حسب السجل عام ١٩٣١.

وإن وفاتها كانت عام ١٩٤٠ حيث دفنت في مقبرة الكنيسة اللوثرية على طريق القدس الخليل تاركة وراءها إرثاً كبيراً جسدته في مجموعتها الفوتغرافية التي قامت بتصويرها على مدى ربع قرن.

وقد قمت بدوري بعد العثور على هذه الصور بتوثيق بعض من أعمالها في معرض كان في مدينة حيفا في مقهى فتوش في الطريق المؤدية الى حديقة البهائية , وبعد عامين قمت بالمشاركة مع جاليري «صدفة» بالناصرة بتخصيص ١٠٠ صورة فوتوغرافية لكريمة عبّود بتاريخ ٥ مارس ٢٠٠٩ حيث اجتذب المعرض المئات من أهالي الناصرة والقضاء والأجانب والسياح وشخصيات ثقافية ومسؤولة حيث قاموا بالتعرف على أهم المجموعات التي قامت كريمة بتصويرها في الثلث الأول من القرن العشرين وهي بلا شك من أهم المجموعات كونها اهتمت بالتقاط المشهد الاجتماعي للفرد والعائلة بفلسطين بدون تزييف.

لقد أتيح لي في السنة الماضية أن أبحث وأقرأ ما كتب عن كريمة عبّود وكم كان سروري عظيماً عندما استطعت أن أمسك بأطرف الخيوط متتبعاً مسيرتها الفنية لأحيك منها لوحة فريدة واضحة المعالم لفنانة لم نكن نعرف عنها إلا النزر اليسير من المعلومات... ورويداً رويداً فإذا بهذه الفنانة تخرج من الظلمة إلى النور. ومن الظل إلى الضياء. وإذا بنا أمام اكتشاف عظيم لامرأة رائدة. ولفنانة ناشطة. ولإنسانة فريدة. والآن صار بمقدورنا أن نقول من هي كريمة عبّود بحقها وحقيقتها.

Photography3.indd 30-31 7/26/11 12:56 PM